مواجهة المذبحة: التدخلات الإنسانية في الدولة العثمانية (1815-1914)

كتبته ديفيد رودوجنو

حرره: بينار شان إشيك

مفهوم التدخل الإنساني والممارسة الدولية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ هو موضوع كتاب مواجهة المذبحة: التدخلات الإنسانية في الدولة العثمانية 1815-1914 للكاتب ديفيد رودوجنو. يتناول هذا الكتاب الجذور الأوروبية للتدخل الإنساني ويرفض الحجة القائلة بأن التدخل الإنساني هو ممارسة للعلاقات الدولية التي نشأت بعد انتهاء الحرب الباردة. يركز رودوجنو على حقيقة أن جذور التدخل الإنساني تعود إلى القرن التاسع عشر. ويعرف التدخل الإنساني على أنه " الدبلوماسية القسرية لمجموعة من الدول داخل إقليم الدولة المستهدفة" (ص2). يضم الكتاب عشرة فصول ويركز بشكل رئيس على الجوانب السياسية والقانونية للانخراط الأوروبي في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية.

في مقدمة هذا الكتاب، يجادل رودوجنو بأن " التدخلات الإنسانية في القرن التاسع عشر لم تكن بالضرورة نتاج الديمقراطية، أو حرية الصحافة، أو الأهمية المتزايدة لمبدأ تقرير المصير" (ص 17). ويسعى Rodogno لإظهار العلاقة بين "المسألة الشرقية" وتاريخ التدخل الإنساني بالقول إن "المسألة الشرقية" لعبت دورًا مركزيًّا في التدخلات القسرية للقوى الأوروبية نيابة عن الرعايا المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية. في الفصل الأول، يتناول Rodogno السياق الدولي للتدخلات الإنسانية في القرن التاسع عشر. وفي الفصل الثاني، استنادًا إلى الكتابات والمقالات والنشرات البريطانية والفرنسية في القرن التاسع عشر، يركز على التصورات الأوروبية حول العثمانيين، ويستكشف أسباب استبعاد الإمبراطورية العثمانية مما يسمى بـ"أسرة الأمم". ويتناول الفصل الثالث التدخل العسكري للدول الأوروبية في اليونان العثمانية (1821-1833). أما موضوع الفصل الرابع فهو التدخل الأوروبي في الصراعات المحلية بين الدروز والموارنة في ستينيات القرن التاسع عشر. وفي الفصول الخامس والتاسع، يتناول الكاتب بالتحليل، تدخلات القوى الأوروبية في الشؤون الداخلية لجزيرة كريت. ويركز الفصل السابع على تدخلات الحكومة البريطانية والأمريكية خارج أوروبا. ويناقش الفصل العاشر تدخل الدول الأوروبية في إقليم مقدونيا العثماني بين عامي 1903 و 1908. ويبحث المؤلف أيضًا عدم تدخل القوى الأوروبية خلال أزمة الشرق في الفترة من 1875-1878، و"المسألة الأرمينية" في تسعينيات القرن التاسع عشر في الفصول السادس والثامن.

ومن المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار وضع الإمبراطورية العثمانية في إطار النظام الدولي، والأسس التي جعلت عليها القوى الأوروبية تدخلاتها في شؤون الإمبراطورية العثمانية شرعية. لكن محاولة شرح جذور التدخل الإنساني بالرجوع إلى "المسألة الشرقية" يبدو نهجًا

إشكاليًّا. لأن الدول الأوروبية قيمت النزاعات المحلية في الإمبراطورية العثمانية على اعتبارها جزءًا من "المسألة الشرقية" وخلقت جوًّا يوحي بأن الحكومة العثمانية غير كافية، ووفقًا لهذا السبب، رأوا أن "حل" "المسألة الشرقية" يتوقف على إجراءاتهم وتدخلاتهم. ومع ذلك، أظهرت الحالات التي تم سردها في هذا الكتاب أن التدخلات الدبلوماسية والعسكرية الأجنبية انتهكت الحقوق السيادية للإمبراطورية، وكانت بعيدة كل البعد عن وضع حد للصراعات المحلية، بل إنها جعلت تلك الصراعات أكثر تعقيدًا.

يدعي رودجنو أن إضفاء الشرعية على التدخلات الأوروبية، نيابة عن المسيحيين الذين عاشوا في الإمبراطورية العثمانية هي مماثلة تمامًا للإمبريالية الأوروبية. بالنسبة لصانعي السياسة الأوروبيين، كانت الحكومة العثمانية "فاسدة" و "جهاز دولة غير كفؤ" (ص37)، ورأوا أن المشكلات في الإمبراطورية العثمانية كانت بسبب أوجه القصور المتمثلة في الحكومة وأن إخوانهم المسيحيين "ضحايا". وبالإضافة إلى ذلك، اتهم الأوروبيون النظام العثماني بكونه "متخلفًا"، و"إدارة ذات توجه شرقي" استنادًا إلى آراء المستشرقين. ودائمًا أطلق ممثلو الدول الأوروبية على العثمانيين لقب "الأتراك غير المتحضرين" (ص42)، واعتبر العديد من رجال الدولة، مثل جلادستون Gladstone، التدخل الإنساني "خطوة نحو تحرير شبه جزيرة البلقان من طغيان العثمانيين" (ص169).

وبالمثل، فإن مقالة جون ستيوارت ميل John Stuart Mill الشهيرة التي تحمل عنوان "بضع كلمات عن عدم التدخل"، ميزت بين الأمم "المتحضرة" و"الأمم الهمجية" من أجل تبرير تدخل "الدول المتحضرة" في الشؤون الداخلية لـ"الأمم الهمجية" (ص50). يبدو واضحًا أن الأوروبيين استغلوا دائمًا الفرق بين المتحضر/ وغير المتحضر، العلوي/ السفلي، لإضفاء الشرعية على تدخلاتهم في شؤون الإمبراطورية العثمانية. ولذلك، ادعت الحكومات الأوروبية أن "المهمة الحضارية" لممثليها هي تحسين الأوضاع وإقامة النظام والسلام داخل الإمبراطورية العثمانية، ونشر المعايير الأوروبية للحضارة خارج أوروبا. هنا يذكر رودجنو Rodogno القارئ أنه في حين اتخذت القوى الأوروبية إجراءات جماعية ضد الدولة العثمانية، فإنها تجاهلت انتهاك القانون والحريات الدينية في مستعمراتهم (ص12). وبالإضافة إلى ذلك، يشير الكاتب إلى أن العلاقة بين الرأي العام الأوروبي وسياسات الحكومات الأوروبية كانت داعمة.

ويختتم الكتاب بالإشارة إلى أوجه التشابه والاختلاف بين التدخلات في القرن التاسع عشر وتلك المعاصرة. على الرغم من حقيقة أن الكتاب يتناول بالتحليل التدخلات الأجنبية داخل الأراضي العثمانية في القرن التاسع عشر، فإن عدم وجود أي مواد من المحفوظات العثمانية، كما اعترف المؤلف بذلك، يشكل إشكالية في أن الحجج والاستنتاجات الرئيسة للكتاب تأثرت إلى حد ما بالمصادر التي استخدمها المؤلف. على سبيل المثال، هناك خطأ طفيف في الهوامش، فبينما يشرح الكاتب أن هليبا Halepa في جزيرة كريت، يقول أن "Halepa جزء من كانيا"، حاليًّا هيراكليون، حيث عاش الجزء الأكبر من المجتمع الأوروبي" (ص 328). ومع ذلك، فإنه من المهم الإشارة إلى أن (كانديا)هي هيراكليون الآن.

من خلال التمعن في مسألة التدخل الإنساني في القرن التاسع عشر بشكل متعمق، يلاحظ أن هذا الكتاب قدم مساهمة قيمة للتاريخ السياسي للتدخل الإنساني. كما أن المؤلف يقنع القراء أنه على الرغم من التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم، فإنه لم يتم إضفاء الشرعية على التدخل الإنساني من خلال الإشارة إلى القيم والمبادئ العالمية.